صفحة من حياة شاعر

عاشق ومجنون!...

الأستاذ صلاح الدين المنجد

كان اسمه جيرار دى نرفال ، وكان مولده فى باريس حيث الفيروم البواكى وحيث الجو المكفهر. أما أبوه فكان طبيباً فى الجيش، وأما أمه فكانت بنت بائع فقير . فنشأ فى قرية أودعه فيها أبوه ، بعد أن قضت أمه ، وأرسل إلى القتال . فنبت بين الحقول الواسعة، والسهول المتوثبة نحو الأفق البعيد . وطابت له الحياة فى هذه القرية التى لا تُسمع فيها الأصوات النابية تتعالى على جنبات السين ، ولا يُرى فيها فوران الناس بين الأحياء والشوارع ، وإنما تسمع فيها أصوات العجائز الخافتة ، وهن يتحدثن عن طرائف السحرة والجان ، ويرى فيها أسراب الغنم تقودها الفتيات والرعيان . وأحب الحياة فى القرية ، فأثر ذلك فى حياته . ثم خلّف القرية إلى باريس ليشدو فيها العلم . وما كاد يبلغ الثانية والعشرين حتى أخرج للناس طائفة من أشعاره . ثم قرأ « غوته » فكلف بكتبه ، وعزم على نقل « فوست » إلى الفرنسية . وسرعان ما نفذ ما عزم عليه ، فجاءت آية رائعة أعجب الناس بها كثيراً . فقدروا صاحبها ورمقوه . ودفعه هذا الظفر الذى سعى إليه منذ سلك طريق الأدب إلى انتخاب قطع من شعر « رونسار » وأخرى من أشعار « غوته » و« شيلر » ليقدمها إلى الناس . ثم انكب على الشعر يقرأه وينظمه ووجد أن حياة الأديب ، وما فيها من كسل وما فيها من أحلام ، قد صادفت من نفسه هوى، فهو لا يصلح بعد اليوم إلا لها. فقد كان له مزاج الأديب وإحساس الشاعر . وكان كما يقولون عنه دقيق الفكر رهيف الحس واسع الخيال ، يسكن إلى الأحلام ، ويقضى ساعات من نهاره وساعات يفتش عن حلم يرضى عنه . ويظهر لنا من أشعاره أنه كان يجد فى الأوهام راحة لنفسه . . . فهو لا ينفك يتوهم ويتوهم . فهو يصف لنا ، كيف يستشف أشباح الجان من وراء الغيوم ... فيصيخ بسمعه إلى عزيفهم المبهم تارة والخفيف طوراً ... يرسلونه مع زفيف الريح الثائرة . ويراهم مختبئين بين طيات السحاب ... فيناديهم ، فيأتون سراعاً يحيطون به ... يكلمونه قليلاً ويحدثهم قليلاً . ثم إنه ليتمثل نفسه طائراً ... يقفوه نفر من الجن ، يسرح معهم فى الفضاء حتى يصل إلى السماء ، فينظر إلى الأرض الخاضعة تحت قدميه ، أو يتمثل نفسه حيناً آخر هابطاً إلى سيف البحار ليستجم قليلاً ، ثم ليهبط إلى قرارة البحار فيرى الحيتان والأسماك ، ويزور أميرات الجن فى قصورهن المتلألئة فى قاع البحار

وكان لا بد له وهو فى مثل هذا الحس الرهيف والخيال العميق والسن الباكرة أن يحب ويعشق . ولقد أحب ، ولكن حبه كان لوناً من الحب لم يكن للناس به عهد من قبل . فإن فيه كثيراً من الطرافة التى تعجب ، والفكاهة التى تُطرب . فهو لم يعشق فتاة رآها فى الشارع أو الطريق ، ولا لقيها فى الحقل أو عند النبع ، وإنما عشق فتاة رآها فى حُلُمه . فلقد مسّ الكرى أجفانه ذات ليلة مساً رقيقاً أنساه نفسه ودنياه : « هاأنذا فى قصر « مورتو فونتين » أرتع بين رياضه ، والقمر الساجى يرسل أشعته فتهوى فاترة كليلة ... تضىء القصر ذا الجبهة الحمراء ثم تختفى بين أزهار الزرفون . وفجأة تبدو فتيات حسان ... يرقصن على النغم ، ويغنين الأغاريد؛ وكنت وحيداً فحدقت فيهن ورأيت فتاة شقراء ناعمة الشباب غضة الجمال قد اكتنفتها وأخذن يتمايلن معها . سمعتهن يناديها : تعالى يا أدريان ! فلكت علىّ فؤادى ؛ وأقبلن نحوى فرقصن . ها هى ذى بين ذراعىّ ... أرقص معها . لقد سمعت من يهمس فى أذنى أنْ قبلها ولا تخف فهى لك . فضممتها إلىّ وقبلتها ، ثم جلسنا حولها لتغنى لنا . فغنت بصوتها العذب الحلو أغرودة من أغاريد الأقدمين تفيض بالحزن ، وتفيض بالسحر ، فيها قصة تلك الأميرة التى أودعوها البرج الشامخ .. لأنها أحبّت فتى غرانقاً

« وكانت الفتاة الشقراء تغنى فتحنى الأشجار ، وتأتى أشعة القمر ترقص حواليها فتحفها بنور يبهر الأبصار ويعشيها . وغفلنا عن الليل ، وحسبنا أننا فى جنة عدن ، فقمت إلى غصن من الثمار لأضعه على رأسها ، ولكنها قامت تثنى وتلهو ... ثم اختفت بين الخمائل عن أبصارنا ... وتلاشى صوتها ... ونأى طيفها ، ولكن صورتها ما تزال فى نفسى لا تغادرها بعد أن تغلبت على كل صورة[1] »

(١) من قطعة له اسمها « أدريان »

تلك قصة حبه ، ولقد كان وفياً لهذا الطيف الذي قبله ورآه واعتقد أنه راجع إليه لا محالة ... فسماه « زهرة الليل التي تفتحت تحت أشعة القمر الشاحب » وسماه « الطيف الوردي الأشقر الذي اختفى بين الأعشاب ، والتف بالسحاب »

وفكر شاعرنا طويلاً في زهرة الليل ، فانكب على السحر وما يمت إليه بسبب يدرسه ويقرأ أصوله كأنما أراد أن يسخره لإحضار أدريان . وكان يسمع عن الشرق أقاصيص حلوة طربت لها نفسه ورضي عنها هواه ، فتمنى لو زار تلك البلاد التي هبطت إليها الأحلام ، ورتعت بين جنباتها الأوهام ، فيدرك ما فيها من أمور يحيط بها الغموض والخفاء . وخيل إليه أن أدريان هي بلقيس صاحبة العرش العظيم ، أتت إلى القصر الأحمر لتهمس في أذنه أسرار الدنيا وتدله على طريق الخلود

ويذكر لنا من كتب عنه أنه كان يعتقد في تقمص الأرواح ، وأن نظرته إلى أدريان كانت نتيجة لذلك الرأي . ولقد أصبح هذا الرأي لديه يقيناً عندما قضى بين دروز سورية ردحاً من الزمن غير قصير . على أننا لا ننكر أن للمخدرات التي كان يقتل بها جسمه ويفني نفسه أثراً في إخلاده إلى ما أخلد إليه . والعجيب أن يعتقد بأن تلك الأوهام حقائق ، على حين يعتقد الناس أن الحقائق أوهام . وكان من خبره بعد ذلك أنه التقى ذات ليلة براقصة في حانة بباريس لحسبها أدريان الحبيبة ، وبعث الهوى الأول وهاج الشوق القديم ، فقال في نجواه لنفسه : لقد عادت إلي بعد أن اختفت بين الرياض . ولازم المقهى لايغادره إلا لحاجة ليملي بصره من جمال هذه الراقصة التي تقمصتها روح أدريان . وكان يغمرها بأزاهيره التي كان يرسلها وعليها اسمه ... ملتمساً بذلك لنفسه وصلاً عندها ، قانعاً بالنظر دون الكلام . ولكنها ازورت منه بعد أن رأت جنونه وعلقت فتى كان يغني فتزوجت به

وزاد جنون شاعرنا عندما تخطى الثلاثين ، فقد رأى في إحدى الأماسي نجماً يضطرب في السماء ، فضحك له وظن أنه بلقيس تناديه لتذهب به إلى الشرق . فأخذ يقهقه ويغني ويقفز ويبكي ، وينزع أثوابه ويمد يديه نحو النجم المتلألئ منادياً تارة ومغرداً أخرى حتى مر به بعض من عرفه ، فأشفقوا عليه ورثوا لحاله وقادوه إلى الطبيب

وذهب ما ألم به بعد ثمانية شهور قضاها في مصح الطبيب « بلانش » فعزم على الرحيل إلى الشرق . فترك باريس سنة ١٨٤٣ وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة قاصداً جزيرة مالطة ، ثم رحل عنها إلى الاسكندرية فالقاهرة . فراعه منها آثار مدينتها القديمة وعزها الخالي ، وأعجبه زي المصريين فتزيا به ، وحاول أن يتعلم العربية فلم يفلح . ثم ترك مصر قاصداً سورية ومعه جارية سوداء اسمها زينب

وجد شاعرنا في سورية ضالة نفسه . فقد درس ما فيها من ديانات ، فأعجبته منها الدرزية . وزاد يقينه بالتقمص واعتقد أن بلقيس لا بد آتية إليه بعد أن فرت أدريان وأعرضت عنه جون[1] . ألم يجتمع ببلقيس فوق ثبج البحر على سفينة صنعت من الذهب ، ورصعت بالدر ، وحفت بها الجان ، فضمها إلى صدره وروى فيها الظمآن من قبلاته ؟

وعاد عقله إلى الاختلاط فترك بيروت إلى القسطنطينية فأقام بها زمناً ، يقول : « بلغت البوسفور ... فالتفت نحو مصر الجميلة فإذا هي وراء الأفق البعيد »

« لقد ذكرت وطني الذي تركته منذ شهور ، عندما وطئت قدماي هذه الأرض الأوربية التي استولى عليها المسلمون . والتفت حوالي ... فإذا أنا أمام حلاق أرمني يقص اللحى ... ويقدم القهوة . ورأيت جمعاً من الكلاب النائمة على الطريق . ولقيت شيخاً وثوراً يحمل عنه الكبيرة مستلقياً على العشب ... نائماً ملء عينيه ، يحلم بالجنة التي وعد الله عباده الصالحين » .

وعاد جيرار إلى باريس فكتب « مشاهد من الحياة الشرقية » أخرجها للناس بعد أربع سنوات . وما زال يتنقل بين السجون لجنونه والبلاد المجاورة ، برماً ببلاده ومحيطه ، سائلاً ربه « ألا يبدل من حوادث الكون شيئاً ، وإنما يبدل ما يحيط به من الأشياء ليعيش وحيداً في عالمه الجديد » مخرجاً للناس « ذكريات ونزهات » و « بنات النار » و « قصور بوهيميا الصغرى » حتى لقي مصرعه الذي كان يمشي نحوه ببطء منذ زمن طويل ،

فقد ألحت عليه الأوهام واشتدت في الإلحاح فأذعن لها ،

(١) كان اسم الراقصة التي أحبها : « جون كولون »